اصدارات

محمد سعيد الريحاني
ومهمة البحث عن النص الأقصىٰ في درجاته القصوىٰ الممكنة

❑ د. الحبيب الدائم ربي

لكأنه يقتدي بالشاعر عروة، في توزيع ذاته في ذوات كثيرة، ويسرق قبس الإبداع، والنار حارقة وهاجة. فمنذ أن بزغ نجمه أواسط تسعينيات القرن الآفل، ومحمد سعيد الريحاني لا يلتفت خلفه إلا لاستيحاء واقعة أو ذكرى، فيما نظره يظل مشدودا، باستمرار، إلىٰ أطياف هاربة، حرون، يبغي الإمساك بها، حين لا حيلة، عبر حيل اللغة التي لا تنتهي .يراودها، شعرا هو الحكاء، يراودها نثرا وفي الضفتين، إبداعا ونقدا، ورقيا وعلىٰ أودية السيليكون من غير كلل،. كما لو كان في سباق مع نفسه ومع الزمن. وحين لا تسعف المراودة يرتئيها "مراوضة" وترويضا بكل القسوة اللازمة التي يحق للمبدع أن ينهجها إزاء اللغة والتخييل.

فكما كان لاسمه الثلاثي، الذي ألفه القراء مع الوقت، رنين مشرقي مخصوص، كانت صورته الشفيفة، التي رافقت نصوصه، هنا وهناك، توحي، من جهتها، بذكاء ثاقب وخجل تخفيه نظارات طبية ولا تخفيه. أما انشغالاته المتواترة فبعدد أحلامه التي لا يتسع لها مدى. من ثم رأيناه لا يني ينحت في اللغة وفي الفكر، يختط سبلا يراد لها أن تكون غير مسبوقة في الرؤية كما في الصوغ الفني.

هكذا، وفي ظرف عقد من الزمن أو يزيد قليلا، وهو ظرف وجيز نسبيا، استطاع محمد سعيد الريحاني أن يقتعد له مكانة محترمة بين كتاب يفوقونه سنا و حنكة، لا بعدد مؤلفاته وحسب بل وبسعة الأفق وطول النفس والرغبة الجموح في تجاوز الذات، الأمر الذي جعل كثيرا من الصحفيين يطلبونه لإجراء حوارات أو أخذ تصريحات تهم الواقع والمتخيل، المعيش والمكتوب معا. ولعل هذه الحوارات الغنية والمتشعبة وحدها قد تصلح مادة للتأمل والبحث، ناهيك عما كتب عن صاحبها من المقالات والدراسات في كتب أو موسوعات عالمية...

لم يأت كل ذلك بمحض مصادفة أو أوضاع استثنائية مميزة. فالفتىٰ لم يولد وبين أنامله يراع من ذهب، وفوق ذلك لم يولد في "مركز" قد يسهل عليه مأمورية التسلل وفق اعتبارات غير اعتبارات الكد والعمل والمؤهلات الحق.فكل ما حققه ويحققه أتىٰ عن عزيمة وموهبة ما فتئت تصقل بالمثابرة والإخلاص. لقد نشأ وتربىٰ في مدينة صغيرة، مدينة القصر الكبير شبه المنسية وانتزع مكانه تحت شمس الكتابة في صمت بليغ وخاض معارك ضارية وبجرأة نادرة دفاعا عن حقوق مهنية لا تقبل التفويت وحفر في محاتد لها صلة بالإناسة والسيمياء والفن والفكر عموما. كما تجند للتعريف بالأدب المغربي، وبالقصة القصيرة تحديدا، قطريا وعربيا وعلىٰ الضفاف الأنجلوسكسونية. وقد قام بمجهودات ، في هذا الصدد، لم تبذل مثلها مؤسساتٌ يفترض فيها السهر علىٰ الشأن الثقافي والترويج للعبقرية المغربية.

كل ذلك يتم لديه بإمكانيات، وتضحيات، فردية محضة، وبعشق لا يضاهىٰ للحرف المغربي وناسه. سيما وأن محمد سعيد الريحاني، إلىٰ جانب خصوصيات أخرى، مجترح المفاتيح و"ثالوث الحاءات: حاء الحب، وحاء الحلم، وحاء الحرية"، ذات التقسيم النافذ والبديع. والعمل هذا ،فضلا، عن كونه برنامجا طموحا في بعده الأنطولوجي، بالمعنىٰ الوجودي وانتخاب النصوص في آن، مشروع تنظيري نسقي يبغي ربط التنظيرالنقدي بالممارسة الإبداعية، والنقد بالمنجز النصي. سواء في انتقاء النصوص حسب معايير صارمة و محددة لترجمتها وتقديمها، أو في كتابة نصوص والتفكير فيها عبر تيمات وخيوط ناظمة في تجسيدات تجعل من المجموعات القصصية "مجموعات قصصية" لا مجرد إضمامات نصية لا تربطها روابط عضوية كما هو الحال لدى كثير من الكتاب.

وعليه، يغدو فعل الكتابة غائيا وله مرجعياته النظرية الصلبة وهو مسعىٰ يجعل الكتابة مرتهنة لقيم وجماليات واعية، مخطط لها مع سبق ترصد وإصرار،ويجعل من قراءتها أفقا للحوار الخصيب، ومراهنة علىٰ معرفة وإمتاع. ولعل الكتابة بالتيمات في المجال القصصي، وهو أمر نادر في المدونة السردية المغربية، يذكرنا بالأسئلة التي انكب علي تفكيكها ميلان كونديرا في أعماله الروائية (الخفة، الضحك، الجهل، الخلود، البطء، إلخ.)، وتبعا لذلك فإن محمد سعيد الريحاني، حين يكتب، بلغات وصيغ مختلفة، هو يبحث عن نص أقصىٰ ووحيد في درجاته القصوى الممكنة . إنه يكتب نصه الخاص والمتفرد، تارة في كتاب قصصي يؤلفه أو ينتخبه أو يترجمه، وتارة في سِفْر فكري تحليلي وتأملي .التوسلات شتىٰ والمقصد واحد: ولابد من كتابة النص المأمول وإن شقّت الرحلة وطال السفر!